أزليّة المحبّة

في الحقيقة يعتريني الخوف والرّعدة عندما أتكلّم على المحبّة ، فيجفّ حلقي ، ويتلعثم لساني ، وييبس حنكي ، وتتجمّد أفكاري ، ويخفق قلبي مضطربًا ، فتنحني ركبتاي ساجدة أمام هذا السّرّ العظيم ، سرّ الله العليّ ، سرّ المحبّة .

لا أعرف لهذا السّرّ بداية ولا نهاية . ما أعرفه قليل . أتجاسر على التّكلّم بما ليس عندي ، مقتبسًا عن الّذين اقتنوا هذا الحبّ واستفاضوا به من رسل وقدّيسين ، جبابرة العشق الإلهيّ .

أن تقتني المحبّة ، يعني أن تقتني الله ، لأنّ "... الله محبّة..." [1] . والثّمن الأوحد هو الحياة الدّامية ، المتألّمة ، والمبذولة . تقتنيها إن استطعت أن تقتلع أهواءك السّمجة بالدّموع ، وتحرق خطاياك بنار التّـوبة ، وتحرث قلبك بمحراث التّقوى ، وتدمّر أصنامك بعفاف إخلاصك ، وتسحق أناك بمِدرس الطّاعة ، وتذبح حياتك بسيف التّضحية ... . وقتئذ ، تقتنيك المحبّة شاهدًا لها في ظلام الدّنيا البغضاء ؛ فتتأهّب لتكون داعية لها في هياكل العالم المتحجّرة ببوق حنجرتك ويديك .

من هنا ، تبدأ مسيرتك من تجرّدك ، من فقرك الطّوعيّ ، من إرادتك المذبوحة عفوًا عند أقدام الذّبيح ، من قلبك المدروس على بيادر الجلجثة ، من لاشَيْئِيَّتِك الموسومة بالإخلاء الكلّيّ ... ؛ تبدأ شاهدًا للقلوب الباردة ، الأرواح المتعجرفة ، الضّمائر المظلمة ... . فإن صادفتك صدور منتفخة ، تحطّمها بفأس تواضعك ؛ أو أياد متجاسرة ، فتلويها بقيود إخلاصك ؛ أو أفكار ملتوية ، فتدمّرها باستقامة اعتقادك ؛ أو قلوب ثائرة ، فتخمدها بقوّة عفافك ... .

---

[1] *1 يوحنّا 4 : 16*

وبعد كلّ ذلك ، أنت لم تصل بعد إلى عمق المحبّة ، أنت لا تزال أشلاء عند أبوابها ، جاثيًا متضرّعًا للارتقاء إليها . لكن ، لا سميع أو مجيب ، لأنّك لم تتدرّب بعد على السّكنى معها وفيها . هي نار ، إن اقتربت منها عاريًا ، أحرقتك ، وإن توسّلتها وحيدًا فارغًا ، أسقطتك .

المحبّة ترفض أن تأتيها عاريًا من وشاحك الدّامي ، من كلومك المبرّحة ، من قلبك المطعون بنبل عشقها . هي تأبى أن تسكنها كعبد ، بل كملك متربّع على عرشك المجيد ، أي الصّليب ، رافعًا على منكبيك صغار القوم وفقراؤه كأوسمة فخر على صدرك ، وممسكًا بيمناك صولجان طهارتك المرصّع بفضائلك ... .

عند ذلك فقط يسحرها بهاؤك ويشدّها ضياؤك ، فتقبلك فيها وهي تقيم فيك في عرس يدوم ولا ينتهي ... .